نظرية المعرفة ابن قيم الجوزية

خيران محمد عارف[1]

جامعة الإسلامية الشافعية، بإندونيسيا

khairanarif@gmail.com

ملخص

تدور حول المعرفة الإنسانية مناقشات حادة تحتل مكانا رئيسيا فى الفلسفة، وخاصة الفلسفة الحديثة، فهي نقطة الانطلاق الفكرية الأساسية لإقامة فلسفة متماسكة عن الدين، والكون والحياة والإنسان. وكانت من أهم المناقشات الدائرة فى مجال المعرفة المناقشات التى تتناول مصادر المعرفة ومنابعها الأساسية، ومن أهمها نظرية إسلامية حول المعرفة وإسلامية المعرفة بذاتها.

ولقد كان ابن قيم الجوزية له نظرية خاصة مستنبطة من القرآن عن المعرفة والتى يوضحها فى الموضوعات المتعلقة بمفهوم المعرفة، ومصادر المعرفة، ووسائل المعرفة، وكيف نشأت هذه المعرفة عند الإنسان من خلال هذه الوسائل على ضوء القرآن والسنة النبوية وكيف كانت المعرفة إسلامية من أصيلها، كما سنبينها باتفصيل فيما يلى:

- **مفهوم المعرفة :**

ومن التعريفات المتداولة حاليا، أن المعرفة هي نتاج التفكير والمفاهيم لدى الإنسان من خلال تعامله مع كل ما يحيط به، ففى معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، نجد تحديدا للمعرفة بأنّها: " مجموعة المعاني والمعتقدات والأحكام والمفاهيم والتصورات الفكرية التي تتكون لدى الإنسان نتيجة لمحاولاته المتكررة لفهم الظواهر والأشياء المحيطة به "[٢]. ويرى أرسطو أن المعرفة الحقة المطلقة هي " نتيجة العقل "[٣]. ومن هنا يمكن القول بأن المعرفة هي نتيجة التفكير والعمليات العقلية حول الأشياء المحيطة به.

---

[١]. دكتوراه فى أصول التربية الإسلامية من معهد البحوث والدراسة العربية، جامعة الدول العربية بالقاهرة، مدرس مساعد بالجامعة الإسلامية الحكومية بإندونيسيا، ورئيس قسم تكنولوجيا التعليم برنامج دراسات العليا بالجامعة الإسلامية الشافعية بإندونيسيا. الأمين العام لاتحاد العلماء المسلمين العالمى مكتب إندونيسيا بجاكرتا

[٢] أحمد زكي ، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية** ، بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٧٧ ص ٢٣٤

[٣] محمد لبيب النجيحى ، **مقدمة فى فلسفة التربية** ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٣ ، ص ٢٩١

وأما ابن قيم الجوزية فقد عرف المعرفة بأنها: "إحاطة بعين الشيء كما هو"[٤]. وهذه معناها أن المعرفة هي نتيجة الإدراك وتصورات الإنسان بعد مشاهدة الأشياء والظواهر التى تحيط به كما هي ذاتها وحقيقتها، وذلك انطلاقا من قوله تعالى: ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾[٥]. وقوله تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾[٦]. فالمعرفة عند ابن قيم الجوزية تختلف عن العلم فى اللفظ. ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد، تقول: عرفت الدار، وعرفت زيدًا، قال تعالى: ﴿ فعرفهم وهم له منكرون ﴾[٧]، وقال تعالى : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾[٨]. وفعل ﴿ العلم ﴾ يقتضي مفعولين ، كقوله تعالى: ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات ﴾[٩]. وإن وقع على مفعول واحد كان بمعنى المعرفة[١٠]. كقوله تعالى: ﴿ وآخرون من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾[١١] .

ومن هنا ذكر ابن قيم الجوزية الفرق المعنوي بين المعرفة والعلم :

أولا : أن المعرفة تتعلق بذات الشيء . والعلم يتعلق بأحواله . فتقول : "عرفت أباك ، وعلمته صالحا عالما " . ولذلك جاء الأمر فى القرآن بالعلم دون المعرفة . كقول تعالى : ﴿ فاعلم أنه لاإله إلا الله ﴾[١٢] . وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾[١٣] ، وقوله تعالى : ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ﴾[١٤] . فالمعرفة : حضور صورة الشيء ومثاله العلمي في النفس . والعلم: حضور أحواله وصفاته ونسبتها إليه. فالمعرفة تشبه التصور، والعلم يشبه التصديق[١٥] .

ثانيا : أن المعرفة – في الغالب – تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه ، فإذا أدركه قيل:

---

[٤] ابن قيم الجوزية ، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، القاهرة: دار الحديث** ، ٢٠٠٧، ج٣ ، ص ٢٦٤

[٥] سورة المائدة ، الآية : ٨٣

[٦] سورة البقرة ، الآية : ١٤٦

[٧] سورة يوسف ، الآية : ٥٨

[٨] سورة البقرة ، الآية : ١٤٦

[٩] سورة الممتحنة ، الآية : ١٠

[١٠] المرجع السابق ، ص ٢٦٥

[١١] سورة الأنفال ، الآية : ٦٠

[١٢] سورة محمد ، الآية : ١٩

[١٣] سورة المائدة ، الآية : ٩٨

[١٤] سورة هود ، الآية : ١٤

[١٥] ابن قيم الجوزية ، **مدارج السالكين** ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ٢٦٦

عرفه ، أو تكون لما وصف له بصفات قامت في نفسه . فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها قيل : عرفه ، قال الله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم﴾[١٦]، وقال تعالى : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾[١٧] ، وقال أيضًا: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾[١٨]. لما كانت صفاته معلومة عندهم، فرأوه: عرفوه بتلك الصفات . والمعرفة تشبه الذكر للشيء، وهو حضور ما كان غائبًا عن الذكر. ولهذا كان ضد المعرفة: الإنكار، وضد العلم: الجهل [١٩] .

ثالثا : أن المعرفة : تفيد تمييز المعروف عن غيره ، والعلم: يفيد تمييز ما يوصف به عن غيره. وهذا الفرق غير الأول. فإن ذلك يرجع إلى إدراك الذات وإدراك صفاته. وهذا يرجع إلى تخليص الذات من غيرها، وتخليص صفاتها من صفات غيرها [٢٠] .

رابعا : أن المعرفة علم بعين الشيء مفصلاً عما سواه، بخلاف العلم: فإنه قد يتعلق بالشيء مجملاً [٢١] .

ومن هذا التفريق يمكن القول بأن المعرفة عند ابن قيم الجوزية هي إدراك الفرد على صورة الشيء وشكله وذاته فى النفس، فالمعرفة عنده تشبه التصور، وأنها تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه، وهي علم بعين الشيء مفصلا .

والباحث يلمس من هذا المفهوم للمعرفة أن حقيقة المعرفة هي الادراك والتذكر بعد تعامل الفرد ومشاهدته للأشياء الموجودة ، كما أشار إليها سبحانه وتعالى مخاطبا لأهل الكتاب أنهم عرفوا أخبار محمدا ورسالته من كتبهم ولكنهم أنكروا هذه المعرفة قال تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾[٢٢] .

ولذلك أن المعرفة عند ابن قيم الجوزية ليست تأملية ونظرية –كما هى عند أفلاطون وأرسطو الذَين ذهبا " أنها تأملية يتأملها الفرد لجمالها الذى يتمثل فى منطق واتساق وانسجام بين أجزائها "[٢٣]، – وإنما هي الإدراك وتصورات الإنسان بعد مشاهدة الأشياء والظواهر التى

---

[١٦] سورة يونس، الآية : ٤٥

[١٧] سورة يوسف ، الآية : ٥٨

[١٨] سورة البقرة ، الآية : ١٤٦

[١٩] ابن قيم الجوزية ، **مدارج السالكين** ، مرجع سابق ، ج٣ ، ص ٢٦٦

[٢٠] المرجع السابق ، ج٣ ، ص ٢٦٦

[٢١] المرجع السابق ، ص ٢٦٦

[٢٢] سورة البقرة ، الآية : ١٤٦

[٢٣] محمد لبيب النجيحى ، **مقدمة فى فلسفة التربية** ، مرجع سابق ، ص ٢٩٢

تحيط به كما هي ذاتها وحقيقتها . ولذلك قال ابن قيم الجوزية: " والمعرفة تشبه الذكر للشيء، وهو حضور ما كان غائبًا عن الذكر. ولهذا كان ضد المعرفة : الإنكار "[٢٤] .

● **مصادر المعرفة :**

كما ذكر سابقا أن المناقشة الدائرة حول المعرفة بين الفلاسفة ، تهتم أكثر ما تهتم بتناول مصادر المعرفة . فيرى بعض الفلاسفة أن المصدر الأساسي للمعرفة هو الخبرة الحسية وأن وسيلتها هي الحواس ، وأن معرفة الإنسان التى يتلقاها لا تكون إلا عن طريق حواسه المختلفة [٢٥] .

ويرى البعض أن العقل هو مصدر المعرفة التي تستمد منه أحكامًا متينة متسقة بعضها مع بعض الآخر. ومبادىء المنطق الصورى والرياضة البحتة نماذج للمعرفة العقلية يمكن إثبات صدقها. والقائلون بذلك هم أصحاب المعرفة العقلية . ويرى غيرهم أن المعرفة تأتي عن طريق الحواس والتجربة . والقائلون بذلك هم أصحاب المذهب التجريبي أو المذهب الحسي [٢٦]. والقائلون بالمذاهب الحدسية يرون أن الحدس أكثر طرق المعرفة اتصالا بشخصية الفرد . فالمعرفة الحدسية هي معرفة يجدها المرء في دخيلة نفسه في لحظة من لحظات استنارة البصيرة[٢٧].

وأما أصحاب الاتجاه الديني فيرون أن المعرفة ذات مصدر إلهي حيث أفضى بهاالله إلى من اصطفاه من الرسل ، كما تمثلت فى الكتب السماوية التى نزلها على الأنبياء من خيرة خلقه صلوات الله عليهم . وهذه المعرفة تقتصر على كل ما جاء به الدين باعتباره كلمة الله [٢٨].

ومن هذه الآراء ، نجد أن هناك اختلافات بين المذاهب الفلسفية حول مصدر المعرفة الذى يعتمد عليه الإنسان فى كسب المعرفة . وهي هنا العقل ، أوالحواس ، أوالتجربة ، أوالحدس ، أوالكتب السماوية فكل مذهب من المذاهب يعتد بأحدها أو بعضها كمصادر للمعرفة الإنسانية .

وأما ابن قيم الجوزية يرى فى كتابه : " **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة** " فيرى أن مصدر المعرفة الإنسانية ومنبعها ما يلي :

- الشرع

---

[٢٤] ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين** ، مرجع سابق ، ص ٢٦٦

[٢٥] زكي نجيب محمود ، **نظرية المعرفة** ، القاهرة : مطبعة وزارة الإرشاد القومى ، ١٩٥٦، ص ٥٣

[٢٦] صالح ذياب ورفاقه ، **أسس التربية** ، عمان : دار الفكر والنشر والتوزيع ، ١٩٩٠ ، ط٢ ، ص ١٣٥

[٢٧] المرجع السابق ، ص ١٣٤

[٢٨] صالح ذياب ورفاقه ، **أسس التربية** ، مرجع سابق ، ص ١٣٣

- العقل
- الفطرة [٢٩].

- **الشرع كمصدر للمعرفة :**

والمقصود بالشرع : هو كتاب الله وسنة رسوله إذ تتضمن فيها المعرفة التى لا ينكرها إلا من أنكر كلام الله سبحانه فقال: " فقد تعرف سبحانه إلى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها إلا من أنكر سبحانه "[٣٠] .

ويعتبر ابن قيم الجوزية هذا المصدر أساسا ومقياسا لكل مصادر الأخرى فكل ما وافقه أو لم يخالفه فهو صحيح، وكل ما خالفه كان باطلا، لا سيما إذا كانت المعرفة تتعلق بالمغيبات، أو الفرائض والعبادات والمعاملات والفقهيات لذلك يقول: " وأهل الآراء المخالفة للسنة وما جاء به الرسول فى مسائل العلم الخبرية وأهل مسائل الأحكام العملية يسمون عند السلف أهل الشبهات والأهواء، لأن الرأي المخالف للسنة جهل لا علم، وهوى لا دين "[٣١].

ومن هنا يرى ابن قيم الجوزية أن صحة أي علم أو اعتقاد عند صاحبه لا يعنى صحته مطلقا ، فلا يصح إطلاقا إلا ما جاء به الرسل عن الله، ولذلك أكد ابن قيم الجوزية، أن أعلم الناس فى الكون وأصحهم عقلا ورأيا واستحسانا من كان عقله ورأيه موافقا للسنة [٣٢]. وكل معرفة عند ابن قيم الجوزية، تتعلق بالأمور السابقة لا توافق بما جاء به الرسل فصاحبها يعتبر ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، وكانت نتيجة هذه المعرفة ضلال وشقاء فى الدنيا والآخرة، وإنما ينتفى الضلال والشقاء عمن اتبع هدى الله الذى أرسل به رسله، وأنزل به كتبه[٣٣]. كما قال تعالى: ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمي ﴾[٣٤] .

والمعرفة التى يأتي بها الكتاب والسنة هي أفضل المعرفة وهى المصدر الأول للمعرفة الإنسانية عند ابن قيم الجوزية، لأنها جاءت من عند الله بواسطة رسله، فقد قرر أن المعرفة التى تأتى من هذا المصدر لا تتعارض أبدا مع العقل الصريح ومصادر المعرفة الأخرى بل نجد فى

---

[٢٩] ابن قيم الجوزية ، **مفتاح دار السعادة ، مفتاح دارالسعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة** , القاهرة : دارالحديث , ١٩٩٧ج١ ، ص ٣٤٢

[٣٠] ابن قيم الجوزية ، **طريق الهجرتين وباب السعادتين** ، القاهرة : مكتبة المتنبى ، (بدون تاريخ) ، ص ٢٣

[٣١] ابن قيم الجوزية ، **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، القاهرة: مكتبة اللإيمان، ١٩٩٦ ، ص ٤٩٦

[٣٢] المرجع السابق ، ص ٤٩٦

[٣٣] المرجع السابق ، ص ٤٩٦

[٣٤] سورة طه ، الآية : ١٢٣-١٢٤

الواقع موافقة صريح العقل لصحيح النقل [٣٥]. ولكن إذا وجد التعارض بين العقل والنص وهو ما يحدث نتيجة للغلط أو عدم الفهم والاقتناع بما يخالف صريح العقل فيقع عندئذ التعارض بين ما فهم من النقل وبين ما اقتضاه صريح العقل [٣٦] .

هكذا كان منهج ابن قيم الجوزية فى إثبات قطعية الشرع كمصدر أول للمعرفة الإنسانية حيث يرى أنه ليس هناك تعارض بين هذا المصدر ومصادر المعرفة الأخرى فى كسب المعرفة النافعة للإنسان طالما فهم العقل صريح والفطرة سليمة ، ولا يتبع الهوى .

● العقل كمصدر للمعرفة :

يعتبر ابن قيم الجوزية العقل مصدر من مصادر العلم والمعرفة الإنسانية بعد الشرع، لذلك قال: " وكان العلم والمعرفة حاصلة بالعقل "[٣٧] ، وإنما كان العقل منحصر ومحدود فى إنتاج المعرفة فقال : " وأن المعارف التى تصدر من العقل أكثر من أن تنحصر "[٣٨]. والعقل سمة أساسية من سمات الإنسان وبه سمى إنسانا، وبالعقل ميز الإنسان عن سائر المخلوقات ولولا العقل لأصبح الإنسان فى مرتبة الحيوان، وبه كلف الإنسان بشرائع الله، وبالعقل وبالإيمان جعل الله الإنسان يرتقى إلى أعظم الدرجات عنده وقال تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾[٣٩] .

ودور العقل عند ابن قيم الجوزية أنه يصدق كل ما جاء به الرسل عن الله كمصدر أول للمعرفة ، ويؤيد كل ما جاء فى هذا المصدر ويوافقه ولا يعارضه، وإلا لخرجت الشرائع عن الحكمة والمصلحة فقال: " الشرائع كلها فى أصولها وإن تباينت متفقة مركوز حسنها فى العقول، ولو وقعت على غير ما هي عليه لخرجت عن الحكمة، والمصلحة، والرحمة "[٤٠]. فالعقل عند ابن قيم الجوزية له قدرة التبصر والتفكر حول الكون، والإنسان، والحياة، والظواهر الموجودة، وأن التفكر من عمل العقل والتفكر يورث لصاحبه الإيمان، ويكشف حقائق الأمور، ويعرف

---

[٣٥] محمد محمد ابن الموصلى ، **مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة** ، للإمام ابن قيم الجوزية ، بيروت : دار الفكر ، ١٩٩٧، ج ١ ص ١٤١

[٣٦] المرجع السابق ، ج١، ص ١٤١

[٣٧] المرجع السابق ، ص ١٥٦

[٣٨] المرجع السابق ، ص ١٥٦

[٣٩] سورة المجادلة ، الآية : ١١

[٤٠] ابن قيم الجوزية ، **مفتاح دار السعادة** ، مرجع سابق ، ج٢ ، ص ٣٥٣

الخير والشر، فقال: "وأيضا فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد، فإن التفكير يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له، تميز مراتبها فى الخير والشر، ومعرفة مفضولها من فاضلها وأقبحه"(٤١). ولذلك قرر ابن قيم الجوزية أن التفكير مبدأ كل علم نظري ذلك فإن التفكير يوجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضى وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطى العادة (٤٢) .

ومن هنا اتضح لنا رأي ابن قيم الجوزية فى أن المعرفة التى تأتى من مصادرها العقلية أكثرها صحيحا ومتوقعا ونافعة للناس وهى أقوى حجة، ذلك أن العقل له قدرة على التمييز، والتفريق، والتحليل بين المعلومات ملاءمتها مع الواقع والظروف والظواهر المحيطة حول الإنسان. وكذلك يرى ابن قيم الجوزية أن معرفة الله وأسمائه وصفاته وقدرته ومعرفة ماجاء به الرسل من الشرائع إنما يعرف بالعقل، ولذلك قال: "وهذا ثمرة العقل الذى عرف الله سبحانه وتعالى وأسماؤه وصفات كماله، ونعوت جلاله، وبه آمن المؤمنون بكتبه ورسله واليوم الآخر وملائكته، وبه عرفت آيات ربوبيته وأدلة وحدانيته ومعجزات رسله"(٤٣) . وكذلك أن إثبات النبوة للرسل والميعاد إنما يعلم بالعقل(٤٤).

ومعنى هذا أن ابن قيم الجوزية قد أوضح للناس أن العقل مهم كمصدر للمعرفة الإنسانية، إذ أنه يقوم بتصديق وتثبيت كل ماجاء به الرسل عن الله من الشرائع، ويميزها ويهيئها للإنسان حتى تكون واضحة وسهلة التطبيق والممارسة، وهذه العملية – التثبيت والتمييز– حاصلة على المعرفة والعلوم والمعلومات المختلفة. ولذلك فإن كل إنسان قادر على أن يصل إلى المعرفة باستخدام عقله، وأن الدين والشرع لا يمنع الإبتكار والإبداع لكسب جميع أنواع العلوم والمعارف.

- **الفطرة كمصدر للمعرفة الإنسانية :**

اختلف علماء المسلمين حول تعريف الفطرة. فالمفسرون يرون أن الفطرة هي: الخلقة، والملة والإبداع. وجمهور السلف يرون أن الفطرة هي: الإسلام، وأهل اللغة يرون أن الفطرة هي:

---

(٤١) المرجع السابق ، ج ١، ص ٢١٥

(٤٢) ابن قيم الجوزية ، **الفوائد** ، القاهرة : مكتبة الإيمان ، ١٩٩٩ ، ط١ ، ص ١٧٩

(٤٣) ابن قيم الجوزية ، **روضة المحبين ونزهة المستقين**، القاهرة: مكتبة القيمة، ١٩٩٩، ص ٨

(٤٤) ابن قيم الجوزية ، **التبيان فى أقسام القرآن** ، القاهرة : مكتبة المتنبى ، (بدون تاريخ) ، ص ١٠٧

الخلق والإبداع[٤٥]. وأما ابن قيم الجوزية فيرى أن الفطرة هي الملة الحنيفية والخلقة السليمة فقال: " أن الفطرة هى الحنيفية ملة إبراهيم"[٤٦]. وكذلك أن الفطرة هى الخلقة السليمة فقال: "وقد فطر الله بنى آدم على تناول ما ينفعهم واجتناب ما لا ينفعهم"[٤٧] .

وأكد ابن قيم الجوزية على أن الفطرة هي الخلقة تخضع لعبادة فاطرها أو خالقها سبحانه وتعالى، كقوله تعالى: ﴿ ومالي لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ﴾[٤٨] . فقال تفسيرا لهذه الآية: " فتأمل هذا الخطاب، أنه من كان مفطورا مخلوقا فحقيقة به أن يعبد فاطره وخالقه ولا سيما إذا كان مرده إليه فمبدأه ومصيره إليه وهذا يوجب عليه التفرغ لعبادته ثم احتج عليهم بما تقربه عقولهم وفطرهم من قبح عبادة غيره "[٤٩] . وبالتالى يمكن القول أن الفطرة عند ابن قيم الجوزية هي الملة الحنيفية والخلقة السليمة التى فطر الله الناس جميعا عليها وأنها تخضع لعبادة فاطرها وخالقها سبحانه وتعالى .

ويرى ابن قيم الجوزية أن الفطرة مصدر من مصادر المعرفة الإنسانية ولها – مع العقل – دور هام فى معرفة الله تعالى صفاته وقدراته، قال ابن قيم الجوزية: " أن الفطرة شهدت بأن للعالم ربا قادرا حليما كاملا فى ذاته وصفاته لا يكون إلا مريدا للخير لعباده"[٥٠].

ورد ابن قيم الجوزية قول الذين يقولون بأن الله هو الخالق والرب، وأن صفاته المحمودة مثل : العدل، والإحسان، والبر، والشجاعة وغيرها إنما تعرف بمجرد السمع ، فقال: " هذا قول باطل قد بينا بطلانه فى كتاب المفتاح من ستين وجها، وبينا هناك دلالة القرآن والسنة والعقول والفطر على فساد هذا القول "[٥١]. ولذلك أكد ابن قيم الجوزية أن الفطرة لها القدرة على الفرقان بين النافعة والضارة، كالفطرة على قبول الأغذية النافعة وترك ما لا ينفع [٥٢].

ورأي ابن قيم الجوزية أن المعرفة التى تصدر من الفطرة تفيد للإثبات وتصديق جميع المعلومات والمعارف التى جاء به الكتاب والسنة. فعملية الإثبات والتصديق وظيفة أساسية للفطرة، ولهذا قال ابن قيم الجوزية: " فتأمل كيف ظهرت معرفة الله والشهادة له بالتوحيد

---

[٤٥] فتحى يكن ، **فقه الفطرة** ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ٢٠٠١ ، ط١ ، ص ٩

[٤٦] ابن قيم الجوزية ، **تحفة المودود فى أحكام المولود** ، القاهرة: مكتبة المتنبه، بدون تاريخ ، ص ١٠١

[٤٧] ابن قيم الجوزية ، **مفتاح دار السعادة** ، مرجع سابق ، ج٢، ص ٣٥٣

[٤٨] سورة يس ، الآية : ٢٢

[٤٩] المرجع السابق ، ج٢، ص ٣٥٩

[٥٠] المرجع السابق ، ج١، ص ٣٤٢

[٥١] ابن قيم الجوزية ، **إغاثة اللهفان** ، مرجع سابق ، ج٢، ص ٤٩٥

[٥٢] ابن قيم الجوزية ، **مفتاح دار السعادة** ، مرجع سابق ، ج٢، ص ٣٧٤

وإثبات أسمائه وصفاته، ورسالة رسله، والبعث للجزاء مسطورة مثبتة فى الفطر "[٥٣] .

وأما الذين يرفضون حقيقة وجود الله وصفاته ولا يعرفون أن الله هو الخالق ومدبر شؤون الكائنات ولا يعتقدونها فإن هؤلاء عند ابن قيم الجوزية ، قد فسدت فطرتهم وانحرفت عن منهج الله تعالى ، فقال : " لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذى خلقت عليه أنكرت ما أنكرت وجحدت ما جحدت فبعث الله رسله عليهم الصلاة والسلام مذكرين لأصحاب الفطر الصحيحة السليمة فانقادوا طوعا واختيارا ومحبة وإذعانا "[٥٤].

ومعنى هذا أن أصحاب الفطرة السليمة لهم قدرة على كشف المعرفة والعلوم وأن المعرفة التى تصدر من الفطرة معرفة ثابتة قوية صحيحة، وأن الفطرة محتاجة إلى الرعاية والتربية والتكوين حتى لا تنحرف عن طهارتها وسلامتها. فإن عملية التربية والتعليم فى المدارس ستصبح سهلة ميسرة وأكثر نجاحا كلما تمتع الأطفال بصحة العقل وتأكدت فيهم الفطرة السليمة.

ومن هنا يمكن القول بأن كل إنسان له فطرة سليمة عند الولادة وقابلة للتغيير والتكوين والتربية ولكن للبيئة لها دور كبير فى تكوينها وتشكيلها، وإن كانت البيئة صحيحة وسليمة أصبحت الفطرة سليمة وصحيحة وإلا أصبحت الفطرة منحرفة وفاسدة ، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، وينصرانه، ويمجسانه ﴾[٥٥].

- **وسائل المعرفة:**

يرى أفلاطون أن الوسائل فى تحصيل المعرفة أربعة: " الإدراك الحسي، والظن، ثم الاستنباط الرياضي، ثم التعقل "[٥٦]. وترى الفلسفة الإسلامية أن العقل والحواس معا وسيلتان متعاونتان فى الكشف عن طبيعة المعرفة الإنسانية ومكوناتها. وأن المعرفة تتألف من نشاطين رئيسين، أحدهما يتمثل فى الآثار الوافدة من العالم الخارجي، وثانيهما يتمثل فى فاعلية العقل ودوره فى تحويل هذه الآثار الحسية إلى معان ومفاهيم وقوانين عقلية عامة[٥٧]. ويمكن القول أن معظم الوسائل المعرفية عند الفلاسفة هي: العقل، والحواس.

أما بالنسبة لابن قيم الجوزية فقد ذكر فى كتابه الكبير: " **مدارج السالكين بين منازل إياك**

---

[٥٣] ابن قيم الجوزية ، **مفتاح دار السعادة** ، مرجع سابق ، ج١، ص ٣١٨

[٥٤] المرجع السابق ، ص ٣١٨

[٥٥] البخارى ، **صحيح البخارى** ، مرجع سابق ، ج١، ص ٤٦٥

[٥٦] إبراهيم إبراهيم هلال ، **نظرية المعرفة الإشراقية** ، القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٧، ص ١٣٦

[٥٧] صالح ذياب هندى ورفاقه ، **أسس التربية** ، مرجع سابق ، ص ١٣٧

نعبد وإياك نستعين، " أن وسائل المعرفة اثنان هما العقل والحواس الخمسة. فقال: "أن للمعرفة وسيلتين أو طريقتين:

- العقل
- والحواس الخمس "[٥٨].

- **وسائل المعرفة العقلية :**

مر بنا أن ابن قيم الجوزية يرى أن العقل هو مصدرمن مصادر المعرفة الإنسانية، فكذلك العقل عند ابن قيم الجوزية وسيلة من وسائل المعرفة، وذلك أن العقل له قدرة على التفكير والاستنباط، والاستدلال على الظواهر المختلفة وتعلم القرآن والسنة ليحصل الإنسان على المعرفة. فقال: "وأن الله تعالى أعطى لعباده العلم الذهنى إنما لتعلم الإنسان القرآن بتعليمه "[٥٩] . لقوله تعالى: ﴿ الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان ﴾[٦٠].

ومن هنا أكد ابن قيم الجوزية أن الله تعالى قد أعطى الإنسان القوى والطرق للحصول على المعرفة والعلوم، هذه القوى والطرق إنما هى العقل، والسمع، والبصر. فالعقل عند ابن قيم الجوزية هى القوة الذهنية التى تعطى للإنسان القدرة على حل المشكلات وكسب أنواع المعارف لأن هذه القوة الذهنية لها القدرة على تحليل البيانات المكتسبة من الحواس والقدرة على تمييز بين المعلومات [٦١].

يرى ابن قيم الجوزية أن الله سبحانه جعل للعقل البشري القابلية على التربية والتعلم وكسب العديد من القدرات عن طريق التعلم دون سائر الحيوانات [٦٢]. ويتفق هذا الرأي مع فلسفة التربية الحديثة والتى تذهب إلى أن العقل البشري لديه قابلية لأن يكتسب العديد من القدرات عن طريق التعلم والمرور بالخبرة والتفاعل مع البيئة [٦٣]. ومن القدرات العقلية فى عملية كسب المعرفة عند ابن قيم الجوزية أن العقل له قدرة على الوعي والتأمّل من خلال الأحداث والظواهر المحيطة حول الإنسان، ثم بعد ذلك ويترجم هذه الأحداث والظواهر من خلال

---

[٥٨] ابن قيم الجوزية ، **مدارج السالكين** ، مرجع سابق ، ج٢، ص ٣٧٩

[٥٩] ابن قيم الجوزية ، **مفتاح دار السعادة** ، مرجع سابق ، ج١، ص ٣١٧

[٦٠] سورة الرحمن ، الآيات : ١-٤

[٦١] ابن قيم الجوزية ، **مفتاح دار السعادة** ، مرجع سابق ، ص ٣١٧

[٦٢] المرجع السابق ، ص ٣١٦

[٦٣] عبد الفتاح إبراهيم تركي ، **نحو فلسفة تربوية لبناء الإنسان العربي** , الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية , ١٩٩٣، ص ٥٧

اللسان ثم يسطرها بيده فقال: " هذا ومن أعطاه الذهن الذى يعى به واللسان الذى يترجم به والبنان الذى يخط به ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات ؟ "(٦٤) .

● **وسائل المعرفة الحسية :**

يعتبر ابن قيم الجوزية الحواس الخمس من وسائل للحصول على المعرفة بل كانت الحواس الخمس هي طرق العلم وأبوابها وأن سائر الحواس توجب المعرفة (٦٥). ويذهب ابن قيم الجوزية أن للإنسان ثلاثة قوى أساسية فى استقبال المعرفة واستيعابها أولها العقل (القوة الذهنية) التى تميز بين المعلومات ، والسمع (القوة اللفظية) أو الصوتية التى تعبر عن تلك المعلومات وتترجم عنها له لغيره . والبصر يعتبر بالقوة الرسمى والخط الذى يرسم به تلك الألفاظ فيتبين الناظر منه معانيها كما يتبين للسامع معانى الألفاظ . ولذلك جمع الله سبحانه وتعالى هذه الثلاثة (٦٦). لقوله تعالى : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان مسؤولا﴾(٦٧)، وقوله تعالى: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾(٦٨) .

لقد اكتشف الخبراء أن حواسنا الخمس تدرك المحسوسات والأشياء على أنواعها تأخذ بحاسة أو أكثر من حواسنا الخمس صفاتها . وتقع هذه الصفات فى طوائف فمنها :

صفات أولية: كالشكل، والحجم، والوزن، والموضع، والحركة، وهي تؤخذ باشتراك الحواس معا. **ومنها صفات ثانوية**: كاللون، والرائحة، والطعم، والصلابة، واللين والحرارة وغيرها وكل واحدة منها مختصة بحاسة معينة من الحواس الخمس. **ومنها صفات ثالثة**: ككون المحسوس جميلا أو قبيحا، نافعا أو ضارا، أو جذابا أو منفرا (٦٩) .

وبناء على هذا كان الله سبحانه وتعالى عند ابن قيم الجوزية يذم الذى لا ينتفع بهذه الوسيلة العقلية والحسية من اكتساب الهدى والعلم والمعرفة ، لقوله تعالى : ﴿ صم بكم عمي فهم لايرجعون ﴾(٧٠)، وقوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم

---

(٦٤) ابن قيم الجوزية، **مفتاح دار السعادة** ، المرجع السابق ، ص ٣١٦

(٦٥) ابن قيم الجوزية ، **مدارج السالكين** ، مرجع سابق ، ج٢، ص ٣٧٩

(٦٦) ابن قيم الجوزية ، **مفتاح دار السعادة** ، مرجع سابق ، ج١، ص ٣١٧

(٦٧) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦

(٦٨) سورة النحل ، الآية : ٧٨

(٦٩) حنا غالب ، **مواد وطرق التعليم فى التربية المتجددة** ، بيروت :دارالكتاب اللبنانى ، ١٩٧٠ ، ص ٢٥٣

(٧٠) سورة البقرة ، الآية : ١٨

غشاوة ﴾ [٧١].

ورأي ابن قيم الجوزية أن المعرفة التى تحصلها حواس الإنسان هى أكثر من غيرها وأقوها دليلا للعقل وأكثرها بيانا ووضوحا للإنسان لذلك قال ابن قيم الجوزية: " وليس فى طرق العلوم التى تنال بها أكثر من طرق الحواس ولا أدل، ولا أبين، ولا أوضح العلوم والمعارف من هذه الوسيلة ، فكلما تراه بعينك أو تسمع بأذنك أو تعقل بقلبك، وكلما يخطر ببالك، وكلما نالته حاسة من حواسك فهو دليل على الرب تبارك وتعالى "[٧٢].

هكذا يرى ابن قيم الجوزية أن العقل والحواس الخمس وسائل للمعرفة التى وهبها الله للإنسان للحصول على العلوم، وكيفية هذه الوسائل فى إنتاج المعرفة لدى الإنسان من المعلومات اللفظية ، والرسمية، والصوتية وغيرها التى يستفيد منها الناس فى هذه الحياة . وهذه الحواس الخمس عند ابن قيم الجوزية، كانت أكبر نعم الله للبشر لأنهم بها يسمعون الصوت ويذوقون اللذة ، ويشمون الرائحة، ويبصرون قدرات الله وآياته، وما أبدع وغيرها . ولكن أخذ الله لهذه الحواس هو أشد البلاء، وكان من أهم هذه الحواس هي السمع والبصر فإذا حرمت منه فقد حرمت من المعرفة، والمعلومات، والتعلم، فهو بين الناس شاهد كغائب وحي كميت . لذلك قال : "فأما من أصيب من عينه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المنتقلين من العافية إلى البلية فالمحنة شديدة لأنه قد حيل بينه وبين ماألفه من المرائي والصور ووجوه الانتفاع ببصره. وكذلك من عُدم السمع عنده فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة، ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية، وتعظم المؤنة على الناس فى خطابه ويتبرمون به ولا يسمع شيئا من أخبر الناس وأحاديثهم، فهو بينهم شاهد كغائب وحي كميت وقريب كبعيد [٧٣].

ورأي ابن قيم الجوزية أن من فقد سمعه هو أشد الناس ضررا، إذ أن السمع أكثر حواسا فى قبول المعرفة، وذلك أن من عدم السمع عدم المواعظة والنصائح وأنسدت عليه أبواب العلوم النافعة وانفتحت له طرق الشهوات التى لا يدركها البصر ولا يناله من العلم ما يكفه عنها، فضرره فى دينه أكثر [٧٤].

ومن هنا يرى ابن قيم الجوزية أن المعرفة لا تقبل التجزئ والتقسيم والتفريق بين المعرفة اللادينية والمعرفة الدينية، فكل معرفة تنبع من تلك المصادر المعريفية السابقة هى معرفة من الله

---

[٧١] سورة البقرة ، الآية : ٧

[٧٢] ابن قيم الجوزية ، **مفتاح دار السعادة** ، مرجع سابق ، ص ٣١٧

[٧٣] المرجع السابق ، ص ٣٠٢

[٧٤] المرجع السابق ، ص ٣٠٣

سبحانه وهى إسلامية أصيلة سواء كانت مصدرها من القرآن والسنة أم من العقل والفطرة.

والخلاصة :

أن المعرفة عند ابن قيم الجوزية:

١. هي إدراك الفرد صورة الشيء وشكله وذاته فى النفس ، فالمعرفة عنده تشبه التصور، وأنها تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه، وهي علم بعين الشيء مفصلا. فحقيقة المعرفة هي الإدراك والتذكر بعد تعامل الفرد ومشاهدته للأشياء الموجودة ، كما أشار إليها سبحانه وتعالى مخاطبا لأهل الكتاب أنهم عرفوا أخبار محمدا ورسالته من كتبهم ولكنهم أنكروا هذه المعرفة قال تعالى: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾[٧٥]

٢. أن مصادر المعرفة الحقيقية هي الشرع والعقل والفطرة من كل هذا استطاع الإنسان أن يكسب المعارف والعلوم النافعة لحياته، وأن هذه المصادر لا تتعارض بعضها مع بعض وإنما جعل الله لها التوافق والتكامل مع البعض.

٣. أن وسائل المعرفة للإنسان هى العقل والحواس الخمس، التى وهبها الله للناس لتكون وسائل المعرفة النافعة لهم، من خلال استخدامهم الجاد لها فى التدبر والتأمل والتبصر لقدرات الله وما خلقه من الموجودات.

٤. والعقل الذى ميز الله به الإنسان له القدرة على القياس والاستدلال ليستخرج من الكتاب والسنة، والظواهر الموجودة حول الإنسان، المعارف المختلفة والعلوم المتنوعة.

٥. هذه الموهوبات من العقل والحواس لا بد أن يستخدمها الإنسان فى كل الأمور النافعة ، لأنها نعم الله العظيمة له وإلا سيصيب الإنسان الضرر والفساد والجهل والضلال فى الدنيا والآخرة.

٦. أن المعرفة لا تقبل التجزئ والتقسيم والتفريق بين المعرفة اللادينية والمعرفة الدينية، فكل معرفة تنبع من تلك المصادر المعريفية السابقة هى معرفة من الله سبحانه وهى إسلامية أصيلة سواء كانت مصدرها من القرآن والسنة أم من العقل والفطرة

---

[٧٥] سورة البقرة ، الآية : ١٤٦

المراجع

١. إبراهيم إبراهيم هلال ، ***نظرية المعرفة الإشراقية*** ، القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٧٧،

٢. ابن قيم الجوزية ، ***مفتاح دار السعادة*** ، ***مفتاح دارالسعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة*** , القاهرة : دارالحديث , ١٩٩٧

٣. ابن قيم الجوزية ، ***إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان***، القاهرة: مكتبة اللإيمان، ١٩٩٦

٤. ابن قيم الجوزية ، ***التبيان فى أقسام القرآن*** ، القاهرة : مكتبة المتنبى ، (بدون تاريخ)

٥. ابن قيم الجوزية ، ***الفوائـد*** ، القاهرة : مكتبة الإيمان ، ١٩٩٩

٦. ابن قيم الجوزية ، ***تحفة المودود فى أحكام المولود*** ، القاهرة: مكتبة المتنبه، بدون تاريخ

٧. ابن قيم الجوزية ، ***روضة المحبين ونزهة المستقين***، القاهرة: مكتبة القيمة، ١٩٩٩

٨. ابن قيم الجوزية ، ***طريق الهجرتين وباب السعادتين*** ، القاهرة : مكتبة المتنبى ، (بدون تاريخ)

٩. ابن قيم الجوزية ، ***ملدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين***، القاهرة: دار الحديث ، ٢٠٠٧

١٠. أحمد زكي ، ***معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية*** ، بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٧٧

١١. حنا غالب ، ***مواد وطرق التعليم فى التربية المتجددة*** ، بيروت :دارالكتاب اللبنانى، ١٩٧٠

١٢. زكي نجيب محمود ، ***نظرية المعرفة*** ، القاهرة : مطبعة وزارة الإرشاد القومى ، ١٩٥٦

١٣. صالح ذياب ورفاقه ، ***أسس التربية*** ، عمان : دار الفكر والنشر والتوزيع ، ١٩٩٠

١٤. عبد الفتاح إبراهيم تركي ، ***نحو فلسفة تربوية لبناء الإنسان العربي***، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣

١٥. فتحى يكن، ***فقه الفطرة*** ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ٢٠٠١

١٦. محمد لبيب النجيحى، ***مقدمة فى فلسفة التربية***، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣

١٧. محمد محمد ابن الموصلى، ***مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة***، للإمام ابن قيم الجوزية ، بيروت : دار الفكر ، ١٩٩٧